



عندما تحل المحن والكوارث تتدفق أفواج الإغاثة من كل حدب وصوب، لكن مافيا الاتجار بالآم الناس ومحنهم تتكاثر كما يتكاثر الذباب على الضحايا، متخذة شعارات إنسانية خادعة تسلب الألباب بدعایتها عن الرحمة والتراحم وحقوق الإنسان، ثم يفاجأ الناس بأن التبرعات الطائلة التي تجمعها تتحول مباشرة إلى حسابات خاصة بالبنوك، كما يفاجئون بمنظمات ترفع شعارات الإنقاذ والإغاثة تتاجر في الضحايا أنفسهم.. في الأطفال والنساء، كما تتاجر حتى في قارورة الدواء وكسرة الخبز التي يتم تقديمها، إذ يتم تقديم إغاثات انتهت صلاحيتها وبفواتير باهظة يدفعها الخيرون لتلك المنظمات التي لا ترحم أحداً.

وبالطبع فإن هناك منظمات غربية تحترم رسالتها وتراعي ضميرها الإنساني وتركز عملها على إغاثة الناس دون أغراض أخرى، لكن قائمة مافيا الإغاثة تطول كما أن سجل المتجارين بمحن وألام المنكوبين متخم! ولا يستثنى من ذلك منظمات تطوعية أو منظمات دولية أو منظمات تابعة للأمم المتحدة التي اعترفت مؤخراً بتورطها في توريد غذاء منتهي الصلاحية لإحدى المدن السورية المحاصرة، وتلك مصيبة كبرى.

ففي سبتمبر الماضي تم التوصل في سوريا إلى اتفاق برعاية الأمم المتحدة لتخفيض الحصار عن مدينة الزبداني التي يسيطر عليها الجيش الحر، وقريتين شيعيتين تسيطر عليهما قوات النظام في شمال غرب البلاد. وبمقتضى هذا الاتفاق أرسلت الأمم المتحدة شحنة مساعدات تضم 650 صندوقاً من البسكويت عالي الطاقة فتبين أن نصف الشحنة منتهية الصلاحية أي فاسدة وبالتالي بدلاً من أن تغاث المحاصرين تقتلهم!

وقد اعترفت الأمم المتحدة بالواقعة وقال يعقوب الحلو، المنسق المقيم للأمم المتحدة للشؤون الإنسانية في سوريا: إنه «تم للأسف إبلاغ الأمم المتحدة أن 320 من أصل 650 صندوق بسكويت عالي الطاقة أرسلت إلى الزبداني ومضاريا في إطار قافلة إغاثة في 18 أكتوبر من العام الجاري (2015م) كانت صلاحيتها منتهية بالفعل في سبتمبر 2015م»، وأضاف الحلو: «يمكنا أن نؤكد أن هذا كان نتيجة خطأ إنساني مؤسف خلال عملية التحميل». وتابع الحلو قائلاً: «وتجنباً للمخاطر طلباً من المجتمعات عزل البسكويت المنتهي الصلاحية، ونتخاذل كل الإجراءات الممكنة لتعويض الشحنة في أقرب وقت ممكن».

ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي تُكتشف فيها مواد إغاثية منتهية الصلاحية ضمن إغاثات الأمم المتحدة والمنظمات الإنسانية الغربية، لكن الملف متخم بوقائع وحوادث بل جرائم توريد أغذية ومواد إغاثية منتهية الصلاحية تارة ومشبعة بأشعة

ذرية تارة، ولنترك الوثائق والشهود من داخل الغرب نفسه يتحدثون عن ذلك:

سادة الفقر:

يقول جراهام هانكوك في كتابه «سادة الفقر» إن الغذاء المقدم من المجموعة الأوربية كهدية عادة ما تصحبه كثير من الشكاوى من المنتفعين، بناء على قول عضو البرلمان الأوروبي «ريتشارد بالف» الذي قال: إنه من غير المقبول تماماً أن نقوم بتصدير غذاء لا نأكله نحن أنفسنا. ويضيف الكاتب، في أعقاب انتشار الإشعاع الصادر عن حادث تشنوبيل في روسيا عام 1986 م تحولت كميات من الأغذية الملوثة التي تعتبر غير قانونية في أوروبا إلى شحنات إغاثة.

علاوة على ذلك في عام 1988 م أجبرت مجموعة من الدول الإفريقية المسحوقه لرفض أغذية من المجموعة الأوربية لأنه ثبت أنها ملوثة تلوثاً خطيراً، وينقل الكاتب مما قاله لاري سايمون المسؤول عن أوكسفام أميركا: في أوقات الكارثة تدحرج إلينا كل أنواع الفانوزات، حيث قدمت إحدى المنظمات التطوعية الأميركيه الخاصة الغذاء للجوعى، 91 طناً من الأدوية والأغذية المنقذة للحياة إلى كمبوديا إبان المجاعة الكبرى 1979-1980 م، فكان الغذاء قديماً لدرجة أن أصحاب حدائق الحيوان رفضوا إعطاءه لحيواناتهم، كما أن فعالية الأدوية كانت منتهية قبل خمس عشرة سنة! وقامت منظمات الإغاثة بشحن 800 حقيبة من أغذية الأطفال الفاسدة إلى معسكرات اللاجئين في هندوراس، كما شحنت 51 ألف طن من الأغذية الأوربية إلى مناطق موزمبيق المتأثرة بالمجاعة في إفريقيا، وعند وصول تلك الشحنة وجد أنها قديمة وملينة بالحبوب المكسرة والأوساخ والطين وغير صالحة للاستهلاك، ومثال آخر شحنة من النزرة الشامية 62 ألف طن أرسلت كمساعدة إلى النيجر تبين بعد فحصها أنها لا يمكن أن تكون مقبولة حتى غذاء للحيوانات.

في سنة 1982 م رفضت جيبوتي التي خربها الجفاف شحنة إغاثة من السوق الأوربية (974 ألف طن) التي كانت مصممة على فرض شحنتها الغذائية على الإفريقيين الجائعين بأي طريقة، وأخيراً قبلت «رائير» الشحنة نفسها بعد عامين في 1984 م.

وفي عام 1983 م أوقفت المغرب استخدام 240 طناً من الشحوم لصناعة الصابون، تبين أن الزيت يحتوي على أربعة أضعاف أعلى معدل جرثومي مسموح به، وفي العام نفسه أتلفت تونس 345 طناً من زيت شحوم أخرى أكثر خطورة لاحتوائه على نسبة عالية من البروكسيد ولللوثة بالديدان في حين أن الشحوم الأوربية التي سمح ببيعها إلى ليبيا وهي دولة نفطية في عام 1986 م ويسعر مخفض (16 بنساً) كانت سليمة في صفقة تقدر بسبعة ملايين جنيه متضمنة 700 طن من لحوم مخفضة السعر.

إمبراطورية العقاقير:

وقد ذكرت مجلة «الأوربية» الصادرة في بريطانيا عدد 27 سبتمبر 2001 م تقريراً عن بعض هذه الأخطاء، وأن الدوافع للمساعدات تتعش إمبراطورية العقاقير الدولية وأوردت بعض الإحصائيات فقالت:

وصلت إلى البوسنة والهرسك خلال الحرب الطاحنة في التسعينات مساعدات دوائية وطبية يعود تاريخ تصنيعها إلى الحرب العالمية الثانية!

حيث تؤكد منظمة «أطباء بلا حدود» أن 60% من الأدوية التي وصلت إلى البوسنة والهرسك خلال سنوات الحرب الأخيرة لم تكن صالحة، وبحسب بيانات المنظمة فإن 17 ألف طن منها لم يكن صالحاً أو موافقاً للمعايير العالمية وأن المتبرعين بها قد ربحوا 25 مليون دولار هي نفقات التخلص منها في بلادهم.

كما بلغت كلفة إتلاف المساعدات الدوائية غير الصالحة التي وصلت إلى البوسنة والهرسك خلال سنوات الحرب 1992-1996م) قرابة 34 مليون دولار، بينما كانت قيمة هذه الأدوية الفاسدة في الكشوف الرسمية 17 مليار دولار بحسب تقديرات وتقارير منظمة أطباء بلا حدود.

منظمة «مشروع الأمل» الأمريكية تبرعت لمتضرري حرب كوسوفا في ربيع عام 1999م بأدوية قيمتها المعلنة مليون ونصف المليون دولار، وعند فتح الصناديق في الميدان اكتشفت فرق الإغاثة أنها لم تكن أكثر من مواد تجميل وأقراص لخفيف آلام الرأس.

كما تؤكد منظمة الصحة العالمية أن نصف الأدوية التي وصلت إلى متضرري حرب كوسوفا عام 1999م على هيئة مساعدات لم تكن صالحة بعد أن انتهت مدة صلاحيتها أو قاربت على الانتهاء.

إن حملات جمع التبرعات الدوائية في الدول الغربية والتي كانت تجرى لصالح البلدان المنكوبة في العالم الإسلامي كانت مناسبة انتهزتها بعض الشركات لتخليص مستودعاتها من العقاقير الدوائية الكاسدة والمتقادمة وغير المجدية.

وفي عام 2002م أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق منظمة الغذاء العالمي التابعة لـ هيئة الأمم المتحدة 12 ألف طن من الذرة المعدلة وراثياً إلى زامبيا للتخفيف من آثار المجاعة، وعندما اكتشفت الحكومة الزامبية ذلك رفضت هذه المساعدات، وقال الرئيس الزامبي: أفضل أن يجوع الزامبيون ولا يأكلون أطعمة معدلة وراثياً!

وبعد أيام قلائل قبلت خمس دول إفريقية هذه المواد الغذائية المعدلة وراثياً بسبب شدة المجاعة.

وجه آخر لمافيا الإغاثة:

ولنتوقف أمام بعض النماذج الصارخة من تلك المنظمات والمؤسسات التي ترفع شعار الإغاثة وتختفي خلف شعاراتها الإنسانية وجهاً قبيحاً يندي له الجبين الإنساني خجلأً:

في أواخر عام 1989م عندما وقعت البوسنة والهرسك على أيدي قوات الصرب التي ارتكبت بحق المسلمين أشرس حملة تطهير عرقي شهدتها أوروبا في القرن العشرين، يومها هام أكثر من مليون ونصف المليون مسلم على وجوههم في الغابات والطرقات وداخل عربات القطارات والصالات الرياضية التي اتخذوها ملائج فراراً من المذابح. حينها لاحت الفرصة للمنظمات الإغاثية الغربية المرتبطة بالكنيسة في جميع دول أوروبا تقريباً لتحاول التقاط هؤلاء اللاجئين المنكوبين، وبالفعل تدفقت هذه المنظمات إلى العاصمة الكرواتية «زغرب» حيث تجمع معظم اللاجئين البوسنيين، فكرواتيا تشتراك مع البوسنة في حدود طويلة بل إن البلدين ظلا ضمن كيان واحد هو يوغوسلافيا الموحدة فترة طويلة امتدت لسبعين عاماً.

في تلك الآونة وخلال حرب التطهير العرقي الصربي ضد المسلمين كنت هناك أستطلع أبعاد تلك الكارثة التي حلت ب المسلمين البوسنة. وتوالت الآباء عن انعقاد مؤتمر إغاثي كبير في العاصمة الكرواتية زغرب شاركت فيه كل دول أوروبا تقريباً بزعم إنقاذ أهل البوسنة وإغاثتهم. وقد حضرت ذلك المؤتمر الذي افتتحه يومها رئيس الوزراء الكرواتي لكنني فوجئت بغياب سياسي أوربي واضح عن ذلك المؤتمر، بينما كان كل الحاضرين قساوسة وكرادلة يمثلون كل الطوائف المسيحية في أوروبا، جاؤوا لاقتسام الغنية وبحث سبل التعامل مع هذا العدد الهائل من اللاجئين المسلمين ولم يكن هناك مسلم واحد يمثل أهل البوسنة سوى مسؤول بوسني وحيد حضر على استحياء، لكن وجود الشيخ جمال قطب مندوب شيخ الأزهر في ذلك الوقت الشيخ جاد الحق علي جاد الحق يرحمه الله ضمن وفد إغاثي مصرى كسر حدة الموقف، حيث جلس بعمامته البيضاء بين عشرات القساوسة بعمائهم السوداء مثل مفاجأة لهم حيث صدرت امتعاضات خافتة من بعضهم.

يُوْمَهَا اسْتَقَرَ النَّاقَشُ فِي ذَلِكَ الْمَوْتَمِرِ عَلَى تَوْجِيهِ كُلِّ الإِغَاثَاتِ الْمُرْصُودَةِ مِنَ الْحُكُومَاتِ وَمُؤْسَسَاتِ الْمَجَمُوعِ الْمَدْنِيِّ الْغَرْبِيِّةِ إِلَى الْكَنَائِسِ لِتَقْوِيمِ تَوزِيعِهَا وَفِقْهِ أَجْنَدِهَا.

وَتَحَوَّلَ الْكَنَائِسُ فِي كَرْوَاتِيَا إِلَى مَلَاجِئِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَكْنَنَ لِتَوزِيعِ الإِغَاثَةِ وَالْبَقِيَّةِ مَعْرُوفَةٍ وَهِيَ اصْطِيَادُ هُؤُلَاءِ الْمَنْكُوبِينَ وَمَحَاوِلَةُ خَلْعِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ، تَلَكَ هِيَ فَلْسَفَةُ الإِغَاثَةِ الْغَرْبِيَّةِ فِي مَعْظِمِهَا، لَا شَيْءٌ يَقْدِمُ مَجَانًا إِنَّمَا بِمَقْبِلٍ وَالْمُقَابِلِ الْمُطَلُّبِ مِنَ الْمُسْلِمِ هُوَ عَقِيْدَتُهُ.. وَهَذَا يَتَكَرَّرُ السِّينَارِيوُّ نَفْسَهُ مَعَ كُلِّ مَحْنَةٍ وَكَارِثَةٍ تَنْزَلُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَمَا يَلَقِيهِ الْلَّاجَئُونَ السُّورِيُّونَ فِي أُورَبَا الْيَوْمِ مَثَلًا وَاضْعَفُ.

وَغَنِيَّ عَنِ الْبَيَانِ أَنْ هَنَاكَ مَنْظَمَاتٌ تَمَارِسُ عَمَلَهَا الإِغَاثِيَّ بِمَهْنَيَّةٍ وَضَمِيرِ مَهْنَيٍّ إِنْسَانِيٍّ رَاقٍ تَكْرَسُ كُلَّ رَسَالَتِهَا لِلْإِغَاثَةِ وَإِنْقَاذِ الْضَّحَايَا بِغَضْبِ النَّظَرِ عَنِ دِينِهِمْ.

كارثة تسونامي:

وَعِنْدَمَا اجْتَاهَتْ كَارَثَةُ تِسُونَامِيٍّ 13 دُولَةٌ مَطْلَةٌ عَلَى الْمَحِيطِ الْهَنْدِيِّ فِي 24 دِيْسَمْبَرِ 2004 مَكَانِتْ إِنْدُونِيَّسِيَا مِنْ أَكْثَرِ الدُّولِ الْمَنْكُوبَةِ، حِيثُّ فَقَدَتْ نَحْوَ 285 أَلْفَ قَتِيلٍ وَمَفْقُودٍ وَفِقْ الْحَصِيلَةِ النَّهَائِيَّةِ الصَّادِرَةِ عَنْ وَزَارَةِ الصَّحَّةِ الإِنْدُونِيَّسِيَّةِ.

وَعَاشَتْ إِنْدُونِيَّسِيَا يَوْمَهَا أَزْمَةً حَقِيقِيَّةً، حِيثُّ تَسَلَّلَتْ إِلَى هَنَاكَ عَشَرَاتُ الْمُؤْسَسَاتِ الْخَيْرِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ، مِنْهَا مَا وَصَلَ لِلْإِغَاثَةِ وَمِنْهَا مَا هَرَعَ لِلتَّنْصِيرِ أَوْ خَطْفِ الْأَطْفَالِ وَبِيعِهِمْ فِي أَسْوَاقِ التَّجَارَةِ.

وَقَدْ أَكَدَتِ الْأَمْمَ الْمُتَحَدَّةُ وَجُودَ مُؤْشِراتٍ عَلَى ذَلِكَ، وَنَقَلَتْ بِرَايَتِ لَوْنَدِ هِينِرِكِسِنَ، رَئِيسَةَ وَحْدَةِ حَمَاءِ الْأَطْفَالِ بِالْيُونِيْسِيفِ فِي إِنْدُونِيَّسِيَا، عَنِ الشَّرْطَةِ الإِنْدُونِيَّسِيَّةِ تَأْكِيدَهَا ضَبْطُ حَالَةِ اتِّجَارِ فِي طَفْلٍ عَمْرُهُ أَرْبَعَةُ أَعْوَامٍ.

وَنَسَبَتْ هِينِرِكِسِنُ إِلَى أَحَدِ الْعَمَالِ فِي مَنظَمَةِ غَيْرِ حُكُومِيَّةٍ مَشَاهِدَتِهِ لَنَحْوِ 100 طَفْلٍ رَضِيعٍ تَمْ نَقْلُهُمْ بِقَارَبٍ سَرِيعٍ فِي مَنْتَصِفِ الْلَّيْلِ فِي إِقْلِيمِ آتَشِيَّهِ (أَكْثَرُ الْأَقْلَيْمِ الإِنْدُونِيَّسِيَّةِ الْمَنْكُوبَةِ). كَمَا نَقَلَتْ صَحِيفَةُ وَاسْنَطَنْ بُوْسْتِ الْأَمِيرِكِيَّةُ فِي عَدْدِ 13 يَانِيَّرِ 2005 مَعْ فِينُونَ بِرِيُوُورِ رَئِيسِ مَنظَمَةِ وَوَرْلَدِ هَلْبِ World Help التَّنْصِيرِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ قَوْلَهُ فِي أَحَدِ الْمُؤْتَمِرَاتِ الصَّحَافِيَّةِ، إِنْ مَنْظَمَتِهِ نَقَلَتْ نَحْوَ 300 يَتِيمٍ إِلَى خَارِجِ آتَشِيَّهِ، لَكِنَّهُ حَاوَلَ نَفِيَ ذَلِكَ فِيْمَا بَعْدَ دُونَ جَدْوِيٍّ.

وَقَدْ أَكَدَ الْأَمِينُ الْعَالَمُ لِلْمَجَلِسِ الإِنْدُونِيَّسِيِّ لِلْعَلَمَاءِ دَرِيْزِينَ شَمْسَ الدِّينِ مَعْلَمًا أَنَّهُ شَاهِدٌ مَتَطْوِعِيًّا تَلَكَ الْمَنْظَمَةِ يَنْتَشِرُونَ فِي آتَشِيَّهِ لِاَصْطِيَادِ الْأَيْتَامِ.

وَهُوَ مَا يَعْدُ دَلِيلًا قَوِيًّا عَلَى أَنَّ كَثِيرًا مِنْ مَنْظَمَاتِ الإِغَاثَةِ الْغَرْبِيَّةِ تَتَجَشِّمُ الصَّعَابُ بِالْذَّهَابِ إِلَى مَنَاطِقِ الْكَوَارِثِ وَالْأَزْمَاتِ لِيُسْبِّحَ الإِغَاثَةَ وَإِنَّمَا بِهِدْفِ التَّنْصِيرِ عَنْ طَرِيقِ الإِغَاثَةِ!

أَطْفَالُ دَارِفُورِ:

لَكِنَّ مَا جَرِيَ فِي دَارِفُورِ مِنْذِ سَنَوَاتٍ يَعْدُ مَثَلًا فَجَّا وَمَفْزِعًا عَلَى عَقْلَيَّةِ التَّجَارَةِ فِي مَحْنَ النَّاسِ وَالْتَّكَسُبِ مِنْ آلَامِهِمْ وَتَكْدِيسِ الْثَّرَوَاتِ عَلَى أَشْلَائِهِمْ وَمَحَاوِلَةِ سَرْقَةِ عَقِيْدَتِهِمْ بِلَ وَحْشَدِ الْضَّغْوَطِ السِّيَاسِيِّ لِسَرْقَةِ وَطَنِهِمْ، وَلَمْ يَعْدِ الْأَمْرُ سُرًّا فَقَدْ كَشَفَتِ الْوَقَائِعُ عَلَى الْأَرْضِ وَالْوَثَائِقِ وَشَهَادَاتِ الْمَسْؤُلِيَّنَّ السُّودَانِيَّنَّ بِأَدَلَّةٍ دَامِعَةٍ أَنَّ مَعَظَمَ مَنْظَمَاتِ الإِغَاثَةِ الْغَرْبِيَّةِ تَدَفَّقَتِ إِلَيْهَا بِدَافِعِ التَّجَسِّسِ وَالْتَّنْصِيرِ وَالْاتِّجَارِ فِي الْأَطْفَالِ وَتَحْوِيلِ تَلَكَ الْمَحْنَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى سَوقِ تَجَارِيَّةِ مِنْ جَانِبِ وَصْفَقَةِ سِيَاسِيَّةِ لَابْتِزَازِ السُّودَانِ وَمَسَاوِمَتِهِ عَلَى مَوَاقِفِهِ الْمُعَارِضَةِ لِلْسِيَاسَاتِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَانِبِ آخَرِ.

وَلِتَدْلِيلِ عَلَى ذَلِكَ نَتَوَقَّفُ أَمَامَ أَشْهَرِ مَنْظَمَتَيْنِ غَرْبِيَّتَيْنِ تَعْمَلُانِ هَنَاكَ:

الأولى: منظمة «أرش دو زوي» Arche de Zoé، والثانية: منظمة «التحالف من أجل إنقاذ دارفور» save darfour.

فمنظمة «أرش دو زوي» بمعنى قوس الحياة، هي منظمة فرنسية غير حكومية أسسها رجل الإطفاء الفرنسي أريك بروتو، في يناير 2005م بربت على السطح في إندونيسيا خلال كارثة تسونامي التي حدثت قبل تأسيس تلك المنظمة بشهر واحد (ديسمبر 2004م). وقد أحاطت تلك المنظمة نفسها منذ نشأتها بهالة من الدعاية عن دورها الإنساني الكبير في العناية بالأطفال المنكوبين وحازت بناء على تلك الدعاية ثقة قطاعات عريضة من المهتمين بالعمل الإغاثي في الغرب، وانخدع بتلك الدعاية العديد من الأنظمة في الشرق. فعند تأسيسها أعلنت تلك المنظمة أن هدفها هو إغاثة ضحايا إعصار تسونامي من الأطفال الإندونيسيين. كما قدمت نفسها عبر موقعها الإلكتروني على أنها منظمة غير ربحية تعمل لصالح اليتامي، لكن تلك المنظمة ظلت متخفيّة وراء شعاراتها البراقة عن العناية بالطفلة حتى تم اكتشاف حقيقة أنشطتها وأهدافها عندما تم ضبطها متلبسة بسرقة 103 من أطفال دارفور عند الحدود السودانية التشادية.

بعد انتهاء مهمتها في إندونيسيا بين الأطفال ضحايا تسونامي دون أن ينكشف شيء من أمرها توجهت إلى دارفور وسط حملة دعائية مكثفة عن مهمتها الإنسانية الجديدة لإنقاذ أطفال دارفور واستحدثت العالم الغربي على سرعة التحرك عبر شعار رفعته وروجت له كثيراً وبطريقة مكثفة، يقول: «أنقذوا أطفال دارفور في الوقت المناسب فسيموتون خلال أشهر». وبالطبع فإنقاذاً لهؤلاء الأطفال من الهلاك أعلنت على موقعها في يونيو 2007م اعتزامها نقل ألف طفل من دارفور إلى فرنسا على مراحل.

شعارات ظاهرها الرحمة:

وصدق العالم شعارات تلك المنظمة التي يقطر ظاهرها الرحمة ويخبئ باطنها إجراماً ووحشية بحق هؤلاء الأطفال، فلم يعرف أحد بعد أنها تختفي وراء تلك الكلمات أغراضًا تجارية وربحية بشعة من خلال الاتجار بهؤلاء الأطفال وبيعهم في فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية، فقد عملت على تجميع مئات الأطفال بدعوى إنقاذهم من الحرث.

وفي إحدى عملياتها التي تم ضبطها وبالتالي فضيحتها في العالم قامت بتجميع 103 من أطفال دارفور تتراوح أعمارهم بين سنة واحدة و8 سنوات في مدينة أبيشي شرقي تشاد تحت لافتة «يتامي دارفور»، وفي سرية تامة قامت تلك المنظمة بالاتصالات بعائلات أوروبية من فرنسا وبلجيكا الراغبة في استضافة هؤلاء الأطفال وامتلاكهم، واتضح من الخطابات المتبادلة بين المنظمة والأسر التي يتم ترويج الأطفال لها أن عمليات البيع هي لأطفال «لاجئين» وليسوا «يتاماً» يتم البحث عنهم يتبعاً، فقد ثبت أن آباءهم معظمهم أحياe يرزقون، وسارت صفة البيع في طريقها دون أن يكشفها أحد ودفعت كل أسرة تريد طفلًا ما بين 1500 و8 آلاف يورو عن الطفل، لكن العملية برمتها انكشفت في اللحظات الأخيرة يوم 27/10/2007م عندما كان الجناء على وشك الإفلات من مطار أبيشي بصحبة أولئك الأطفال على متن طائرة بوينغ مؤجرة من شركة «جيوجيت» الإسبانية. وقامت السلطات التشادية باعتقال الضالعين فيها وهم: تسعه فرنسيين ستة منهم أعضاء في المنظمة ومن بينهم أريك بروتو رئيس المنظمة، وثلاثة من الصحافيين، إضافة إلى طاقم الطائرة الإسبانية المؤجرة وهم سبعة من الإسبان (ثلاثة رجال وأربع نساء).

يومها تفجرت فضيحة مدوية للمنظمة التي ظلت تخدع الناس بسمو أهدافها وتفانيها في إنقاذ الطفولة بينما تقوم في الحقيقة بإخراج هؤلاء الأطفال من مهنة أشد وأكثر إيلاماً، مهنة الاستعباد والتداول كالسلع بالضبط وفي غالب الأحيان ينتهي بهم المقام إلى المغارح لقطيعهم وبع اعصابهم قطعة!

الفضيحة طالت الحكومة الفرنسية على أوسع نطاق وقد حاولت التبرؤ منها في البداية ولكن دون جدو، فقد شوهد الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي يتوجه بسرعة إلى تشارد ويعود إلى باريس في اليوم نفسه وبصحبته المتهمون الفرنسيون بعد أن ضغط على النظام التشادي لتسليمهم له وعدم تقديمهم للقضاء ثم تواردت الأدلة عن علم السلطات الفرنسية بتفاصيل أنشطة هذه المنظمة الإجرامية، فقد أكد مصدر أمني تشاردي أن المتهمين كشفوا أن سيليسيا (زوجة الرئيس الفرنسي في ذلك الوقت، مطلقته حالياً) تدعم تلك المنظمة ثم اتضح أن الرئيس نفسه يدعمها بدليل تحركه بسرعة لإنقاذ المتهمين من المحاكمة في تشارد.

وكشفت صحيفة «لوموند» الفرنسية أن وزيرة الدولة بالخارجية خاطبت منظمة «أرش زو»، قبل انكشاف فضيحتها بثلاثة أشهر، خاطبتها لمساندة المنظمات الناشطة في مجال العمل الإنساني! ذلك ما ظهر وانكشف عن تلك المنظمة وما خفي كان أعظم.

المنظمات الغربية في دارفور:

ولم تكن تلك المنظمة الفرنسية الوحيدة التي تقوم بنشاط مشبوه بين أبناء دارفور، وإنما هناك العشرات بل مئات المنظمات الغربية الأخرى تقوم بأنشطة مشابهة وتصول وتتجول هناك تحت ستار الإغاثة، والإغاثة منها براء. ويبلغ تعدادها 258 منظمة أجنبية تضم حوالي 15 ألف عضو وهي تعمل - بالإضافة لعملها في دارفور - بين اللاجئين منهم حوالي 200 ألف نسمة يعيشون في تشارد على الحدود مع دارفور!

وتقول مصادر سودانية رسمية إن تلك المنظمات حصلت على إعفاءات جمركية تزيد عن 350 مليون دولار خاصة باستيراد الآليات.

ذلك في الوقت الذي لم يتجاوز وجود المنظمات الإسلامية غير السودانية 12.5% من عدد المنظمات العاملة هناك، وقد وصلت تلك المنظمات إلى المنطقة متأخرة عن المنظمات الغربية التي احتكرت مناطق تواجدها وتمكن غيرها من الدخول إلا بإذن منها.

وأثناء زيارة للسودان كشف لي مسؤول رفيع - خلال حوار مطول عن دارفور - أن عدداً من الدول التي وعدت بتقديم إغاثات عاجلة لدارفور لم توف بما وعدت و منها دول عربية، وذلك استجابة للضغط الأجنبي حتى يتم إفساح المجال للإغاثة الغربية لتنفيذ أجندتها الخاصة، كما كشف ذلك المسؤول أن سفيراً أجنبياً في إحدى الدول العربية حاول الضغط على إحدى الجهات الإغاثية الكبرى التي سيرت عدداً من القواقل الإغاثية الجوية إلى دارفور بـألا تقوم بتوصيل هذه الإغاثات إلى دارفور مباشرة والاكتفاء بتوصيلها إلى الخرطوم! والمعلوم أن الخرطوم تبعد عن دارفور آلاف الكيلومترات، وقد رفضت تلك الجهة بشدة طلب ذلك السفير ولو أجاية طلبه ل تعرض تلك الإغاثات إلى التلف ولتأخر وصولها أسابيع عديدة.. مازاً يريدون بالضبط من دارفور التي يتباكون عليها، هل فعلًا يريدون إغاثتها؟!

وتفيد الواقع الماثلة على الأرض أن تلك المنظمات الكثيرة المترادفة هناك لم تكن لإغاثة دارفور، فليس لمعوناتها أثر واضح على أهل دارفور بل إن برنامج الغذاء العالمي أعلن أن أغلب المانحين الغربيين لم يتزموا بتعهداتهم تجاه دارفور، الأمر الذي يضع علامات استفهام كثيرة أمام الهدف من تواجد تلك المنظمات الغربية ودورها هناك.. هل حقاً للإغاثة أم لتحقيق أجندات أخرى بعيدة عن الإغاثة والترابح؟!

وقد لعبت المنظمات الإغاثية الغربية دوراً كبيراً في تغذية الاضطرابات في السودان، منذ اندلاع أول تمرد عسكري في

جنوب السودان عام 1955م، مروراً بكل دورات الحرب الأهلية في الجنوب من عام 1962م وحتى 1983م، وما حدث في جبال النوبة، وانهاء بما جرى في دارفور.

ويرجع السبب في التركيز الغربي على السودان إلى امتلاكه لثروات طبيعية ضخمة ثم ظهور النفط بقوة، إضافة إلى العديد من الثروات المعدنية الأخرى أبرزها اليورانيوم والنحاس في دارفور، كما أن السودان معروف تاريخياً وجغرافياً بأنه بوابة الإسلام إلى العمق الإفريقي، لذا فقد كانت محاولة إغلاق تلك البوابة الهدف الأكبر للكنيسة العالمية.

ولذلك تم التخطيط بدهاء لإغراق السودان في غابة كثيفة من المشكلات والحروب الداخلية وفي الوقت نفسه مواصلة الضغط الغربي والدولي لمحاولات تركيعه وقبوله للأجندة الغربية والدخول في حظيرة المشروع الغربي الاستعماري، لكنه رفض وفضل المقاومة والصمود في ساحات تلك المعركة الطويلة.

الحرب على الإغاثة الإسلامية:

من جهة أخرى فإنه في الوقت الذي يتم فيه إطلاق العنان للمنظمات والمؤسسات الغربية الإغاثية لتصول وتجول في بلادنا، وتمارس عمليات التنصير والخطف للمنكوبين في كل أرض مسلمة حلت بها كارثة يشن الغرب حملة شرسه ضد العمل الإغاثي الإسلامي، متهمًا إياه بتمويل الإرهاب. وقد قطعت تلك الحملة شوطاً كبيراً في تجفيف الكثير من منابع العمل الخيري الإسلامي في كثير من بلاد العالم الإسلامي، ومن يتبع النشاط الإغاثي الخيري الإسلامي المنطلق من بلدان العالم الإسلامي إلى المناطق الإسلامية المنكوبة يجد أنه أصبح يعاني تضييقاً شديداً سواء من السلطات المحلية التي تتعرض بدورها لضغط متواصل من الغرب أو من الحكومات التي توجد هذه المنظمات على أرضها لإغاثة شعبها، وقد أسفرت تلك الحملة عن طرد معظم المنظمات الإغاثية الإسلامية من باكستان وأفغانستان وبنجلاديش وكشمير والشيشان وغيرها، كما تم إغلاق مشاريعها التعليمية والاجتماعية والإغاثية التي يشهد الناس لها بأنها انتشلتهم من محن حقيقة.

كما أن هذه المنظمات والمؤسسات تعاني الملاحقة داخل بلاد منشؤها من الحكومات التابعة لها بسبب الضغوط الغربية المتواصلة على تلك الحكومات، وقد تم وضع عراقيل ومعوقات كبيرة أمام نشاطها وحركتها سواء في تلقي التبرعات من الجماهير أو توصيل تلك التبرعات لمستحقيها في الأماكن الفقيرة من العالم.

حصار شديد:

وقد روى لي عدد من قيادات العمل الخيري من أصحاب الخبرة الواسعة في العمل الإغاثي (رفضوا ذكر أسمائهم) أن مؤسساتهم تعاني من حصار شديد ومراقبات ومراقبات لسجلاتها ودفاترها من قبل وفود أمنية غربية، كما تعاني التضييق والمنع من العمل، برغم أن تلك المراجعات والمراقبات لم تسفر عن ضبط أي مخالفات لأنشطتها الإغاثية المسلمين المنكوبين وأن العديد من المسؤولين في الدول التي يعملون بها أشادوا برسالتهم وبالإنجازات التي حققوها لكنهم عزوا موقفهم إلى الضغوط الغربية!

وهكذا تم شل العمل الإغاثي في كثير من المناطق والدول وما بقي من مؤسسات ذلك العمل فإنه يعمل تحت هواجس الخوف والاتهام بدعم وتمويل الإرهاب، كما أن بعض تلك المؤسسات الإغاثية الإسلامية اتجه للعمل تحت مظلة الحكومات، أي يقدمون ما لديهم من معونات مادية أو عينية للحكومات لتوزعها بمعرفتها، لكن النتيجة كما يؤكد معظم من تحدثت معهم أن جانباً كبيراً من تلك المعونات يضيع في الطريق حيث يذهب إلى جيوب المفسدين ولا تصل المعونات لمستحقيها كاملة.

وهكذا وبهذه الطريقة تم إفساح الطريق وإخلاء الميدان للمنظمات الإغاثية الغربية لتحرك بكل حرية بين اللاجئين

ويقول أحد قيادات العمل الخيري: بعد حوالي 3 أسابيع من أحداث سبتمبر 2011 تم تشكيل فريق عمل من وكالات متعددة تحت اسم «عملية البحث الأخضر»، وهو اسم أطلقته وزارة المالية على حملة محاربة المؤسسات المالية الخيرية، وينكون الفريق من خبراء ماليين من الوزارة ومن أفرع حكومية أخرى، واجتهد الفريق في تقصي كيفية التبرعات «الإسلامية فقط»! واستجib له في توقيف 38 فرداً وتوجيه الاتهام إلى 26 آخرين وحجز حوالي 7 ملايين دولار داخل أميركا و16 مليون دولار عبارة عن تحويلات في طريقها إلى أوجه صرف مختلفة! وبعد أن نفخت هذه الجهات في أجهزة الإعلام وجعل العالم كله يلوك أخبار «تجميد الأموال للأفراد والمؤسسات الإسلامية داخل أميركا وأوروبا»، بعد ذلك شعرت الإدارة الأمريكية بتهيئة كافية للرأي العام العربي والإسلامي ليتقبل الخطوة القادمة – أو على الأقل يمكنه التعايش معها كأمر واقع! – فبدأت ترسل وفوداً أمنية للعواصم العربية والإسلامية بمطالب باهضة تدعو في مصلحتها النهائية إلى تجفيف العمل الخيري، وتأكد جميع البيانات والإحصاءات تجميد ما يزيد على 112 مليون دولار في كافة أنحاء العالم.

وبالطبع فإنها كلها أموال مسلمة، وليس العبرة بضخامة المبلغ أو ضآنته، إنما بالرمزية التي بدؤوا بها لتأكد أن الإجراءات تطال كل الأنظمة في جميع أنحاء العالم.

حرية واسعة للمؤسسات الكنسية واليهودية:

يقول أحد الخبراء بالعمل الخيري إنه مما يثير الدهشة أن التخوفات والاتهامات والشكوك توجه فقط للعمل الخيري الإسلامي دون غيره، بينما تلقى المؤسسات الكنسية واليهودية والصهيونية الدعم والتشجيع! فإحدى الإحصاءات بالولايات المتحدة الأمريكية تكشف أن عدد المنظمات غير الربحية (التطوعية أو الخيرية) بلغ مليون ونصف المليون جمعية ومنظمة، ولها حق الحصول على نسبة كبيرة من الضرائب المستحقة على الأفراد والشركات والمنشآت، وكثير منها له الحق القانوني في العمل خارج الولايات المتحدة في ساحات النزاع والصراع، وتأكد الإحصاءات أن 47% من هذه المنظمات يقوم على أساس ديني.

ويذكر كتاب «عطاء أميركا» الذي يصدر دورياً أن ثلاثة متبرعين فقط قدموا لهذه الجمعيات المسيحية أحد عشر مليار دولار تبرعات في عام 2000م وحده، وتسعة مليارات دولار في عام 2001م.

أما في الكيان الصهيوني فإن «مركز دراسات القطاع الثالث في إسرائيل»، يذكر أن القطاع الثالث «والمقصود به العمل الخيري» أجز مشروعات عام 1995م وحده بلغت قيمتها 11 مليار دولار، وظل هذا القطاع محافظاً على ذلك الإنجاز حتى نهاية عام 2002م.

وتقدر بعض المصادر أن الكيان الصهيوني يحصل سنوياً على مساعدات وهبات مالية تصل قيمتها إلى 15 مليار دولار. ويقول صاحب الكتاب: إن شهود عيان أثبتوا أن منظمات إغاثية تعمل مع منظمة «رؤيه العالم» دأب العاملون فيها على تهديد اللاجئين من السلفادور بوقف الطعام عنهم إن لم يأتوا لحضور القدس البروتستانتي، كما ضرب الكاتب مثلاً بهذه الممارسات بما تم في الصومال، حيث لم يتحمل هذا الشعب المسلم بأكمله أن تتم فيه دعوة للنصرانية فأوسعهم ضرباً حتى غادروه!

